السينوغرافيا

يعتبر مصطلح «سينوغرافيا» من المصطلحات الأكثر رواجا والأكثر تداولا في الممارسة المسرحية الحديثة. ولأجل وضعه ضمن مفاهيمه المتعارضة، أحيانا، والمتقاربة أو المتطابقة أحيانا أخر، يجدر بنا أن نضعه ضمن إشكالية المسرح ذاته، وفي سياق الوشائج التي تربطه بباقي مكونات العرض، حتى تتجلي صورة ودلالات هذه الوشائج، في الأدوار التي لعبها المخرجون والرسامون والمعماريون، لإعطاء هذا المصطلح تخصصات متباعدة - نظريا - لكنها أثناء إنجاز العرض المسرحي تتوحد، باعتبارها أنساقا بنيوية وجمالية مهمة ومتنوعة، يرتبط بعضها بما هو مرئي، ويرتبط بعضها الآخر بما هو مسموع أيضا.

ولذلك، فإن اللغة في العرض المسرحي، تتحول إلى لغات مختلفة، نظرا لوجود تلك الخاصية السيميائية التي تزيد من حدّة إشكالية اللغة في المسرح، حيث أن المشهد - بجوانبه المختلفة من تشكيل مكاني وإنارة وملابس وعناصر أخرى - يقوم بدور مجموع العلامات المتكافئة أو المتقاطعة مع العلامات اللغوية، كما يقول كير إيلام: "يتميز العرض المسرحي باستخدامه لقائمة لا متناهية من الدوال، لتوليد عدد لا متناه من الوحدات الثقافية، وهذه القدرة التوليدية الفعالة التي يملكها الدال المسرحي، تعود جزئيا إلى اتساع دلالاته المصاحبة وهذا يفسر التعدد الدلالي للعلامة."

إضافة إلى ذاك، يتميز مصطلح السينوغرافيا بتعددية دلالية تمنحه مدى يصعب الإحاطة به، إذ بقدر ما هو ضارب في تاريخ الحركة المسرحية العالمية، يعتبر من المصطلحات الحديثة أيضا، لأنه أخذ في العصر الحديث توجهات شتى، لم تقصره على الممارسة المسرحية فحسب، بل راح اشتغاله يشق لنفسه سُبُلاً في شتى الفضاءات الاستعراضية، بل وصار من ضمن اهتماماته تنظيم هياكل المدينة ومنشآتها أيضا.
وعليه، ارتأينا أن تبدأ من البداية التي يفرضها منطق المصطلح، بغرض الوقوف على المعاني والدلالات المختلفة التي عرفها، معتمدين الطرح الإيتيمولوجي Etymologie الذي يبدو - للوهلة الأولى - الخيار الأمثل للفهم الحقيقي للمصطلح، واتقاء للالتباس وتوخيا الوضوحَ والدقة.

ولتكن البداية من المفهوم الذي يقترحه ليتري Littré ويوضحه بييرسونريل جيدا في كتابه Traité de Scénographie، إذ يقول:"هي فن تزيين المسرح (الخشبة)؛ من سكيني Skéné بمعنى خشبة، وغرافيين Graphein بمعنى رسم،" فخشبة المسرح (scène) إذن- تدين بهذه التسمية للإسكينا التي كانت تستعمل خلفيةً للأحداث.

ومع مرور الزمن تطورت وظائف تلك المساحات ونشأت بينها علاقات تكاملية، ما يزال أثرها قائما حد الساعة، فخشبة المسرح الحديث أو المعاصر أصبحت تستقبل الممثلين والديكورات معا، إضافة إلى أن كلمة "مسرح" أخذت هي الأخرى معان عديدة منها: المكان الذي يجري فيه فعل معين، مكان النشاط المسرحي بما يحتويه من آليات، الجنس الأدبي،

بناية المسرح نفسها...ولهذا فإن ربط العلاقة بين المسرح (الخشبة) ومصطلح السينوغرافيا يعني إشراكهما أصلا في الدلالة.

أما الشق الثاني من المصطلح Graphein، فإن إمكانية تناوله بتقنيات مختلفة ومتعددة تفضي إلى أخذه بالمعنى الواسع والشامل للرسم، ذلك أنه يمكن القصد من ورائه وضع خطوط معينة بمقاسات محسوبة، أو رسم جدارية، أو خلفية المسرح أو كيفية قراءة وفهم الفضاء والتعبير عنه بما أتيح من وسائل التجسيد البلاستيكية لإعادة قراءته من جديد، بحسب المعطيات الثقافية والحضارية للمتلقي.

وبعيدا عن الدلالات المتعددة والمختلفة التي يمكن للجذرين "سكيني" و" غرافيين" أن يحملاها منفردين، يبقى تعريف ليتري Littré، مفتوحا على عدة قراءات قد لا تخلو بعضها من السطحية، وتبتعد – بذلك- عن المعاني التي اتخذها مصطلح السينوغرافيا حديثا، بما في ذلك مجالات اشتغالها، التي ما زالت تكتسح كثيرا من ميادين الحياة لدى الإنسان الحديث.

أما قاموس المسرح لباتريس بافيس في طبعته الأولى (1980) فيعرفها بـ:"سينوغرافيا: من الإغريقية Skênographia وتعني فن تزيين المسرح، ديكور مرسوم:

1- (مصطلح تشكيلي) فن رسم صرح (عمارة) منظوريـا.
2 – فن رسم خشبة المسرح.
3 – الديكورات نفسها.
4- علم الخشبة والفضاء المسرحي (الخشبة والصالة)".

ونلاحظ هنا كيف يحاول هذا التعريف ملامسة الجزئيات التي يمكن لفن السينوغرافيا التعامل معها، إذ يحيلنا في البداية إلى الكليات، من خلال إعادة المصطلح إلى أصله المنحذر من الفن التشكيلي، ثم يفصل فيه ليجعله يعنى بخشبة المسرح التي تحمل الديكورات، ثم ينتهي إلى الأعم والأشمل، وهو العلم الذي يهتم بكل من الخشبة وقاعة الجمهور.

غير أنه في الطبعة الثانية المزيدة والمنقحة للقاموس نفسه، والصادرة سنة 1996، يورد تعريفا أكثر مراعاة لمستجدّات العصر، إذ يضيف إلى ما سلف أن السينوغرافيا باتت" (...) تفرض نفسها عوضا عن الديكور متجاوزة مفهوم التنميق والتغليف، الذي كان في الغالب يرتبط بالتصوّر البالي للمسرح بوصفه ديكورا، وتسجل بوضوح إلحاحها على أن تكون كتابة أخرى في فضاء ثلاثي الأبعاد (مضافا إليه البعد الزمني). فباتخاذ هذه (الحرفة) مهمتها الجديدة، والمتمثلة في الكتابة في فضاء معين، تصبح السينوغرافيا أكثر إلحاحا من ذي قبل، على اتخاذ مكانها الريادي للمساهمة المباشرة، في دعم الطاقات الإيحائية للنص الدرامي، والنصوص المسرحية المصاحبة لعملية الإخراج، وهي أدوات ووسائل المخرج للتعبير عن رؤيته الإخراجية.

وغير بعيد عن الكتابة الفضائية، يقول "مارسيل فريد فون "إن السينوغرافيا هي: " فن تصميم الفضاء المسرحي وصياغته وتنفيذه وفق متطلّبات العرض. ويعتمد التعامل معه على

استثمار الصور والأشكال والأحجام و المواد والألوان والضوء." وفي هذا التعريف إشارة إلى كل المستجدات التي طرأت على حرفة السينوغرافيا، وهي العناصر عينها التي تتأثر بالفعل الدرامي، وتؤثّر في الفعل المسرحي، الذي يساهم في صياغة دلالات ومكوّنات الفضاء المسرحي. وهي أيضا القاسم المشترك، بين كل التوجهات الإخراجية التي تعتمد الدلالات السينوغرافية في دعم معاني النص وجعلها أكثر وضوحا وجلاءً.

أما السينوغرافي اليوناني "ينيس كوكوس" [*] فيلحّ في جُل تدخلاته على إعادة مصطلح السينوغرافيا إلى أصله الأول، خاصة بعد ما لاحظه من اتساع رقعة استعمالاته، التي كثيرا ما تُبعده عن فحواه – حسب رأيه - فيقول: "أريد – من خلال العودة إلى هذا المصطلح، الذي أصبح يستعمل كيفما اتفق- أن أندد بالانزياح الذي بات يخرجه عن معناه الحقيقي، مما أدى إلى إعطاء تصور مغلوط عن السينوغرافيا، هذا الانزياح الذي نجم – خاصة- عن التباس لغوي فيه." وإذا كانت هذه حال السينوغرافيا التي يندد بها كوكوس، فما هي السينوغرافيا بالنسبة إليه؟ إنها سكينوغرافيا skènographia؛ فن رسم الخشبة، ولاشيء أكثر من ذلك. لقد ظهرت السينوغرافيا في التداول المسرحي لدى اليونان قبل تداوله في فرنسا بكثير، ذلك أن اللغة الفرنسية لم تعرف هذا المصطلح حتى الستينات. مع العلم أنه يمكن استعمال كلمة سينوغرافيا للإشارة إلى الهندسة المعمارية أو التخطيط العمراني، لكن شريطة أن تضاف إلى كلمة أخرى توضح ضمنيا الميدان الذي تشتغل فيه. كأن نقول سينوعرافيا العمران، أو سينوغرافيا الاحتفالات بالمناسبات والأعياد الوطنية... والتي تهدف إلى إعمار وتنسيق الفضاء لابتداع إطار معين أو مكان ما، من أجل حدث ما.

أما المعجم المسرحي العربي الوحيد، فيعرف السينوغرافيا بأنها: "كلمة تستخدم اليوم في كل اللغات بلفظها المستمد من الكلمة اليونانية Skênographia المنحوتة من Skêne = الخشبة، وGraphikos = تمثيل الشيء بخطوط وعلامات (...) والسينوغرافيا بالمعنى الحديث للكلمة هي فن تشكيل فضاء العرض والصورة المشهدية في المسرح والأوبرا والباليه والسيرك وغيرها من المجالات. وهي نشاط إبداعي فني يفترض معرفة بالرسم والعمارة (...) وتُعنى السينوغرافيا بتنظيم الفضاء المسرحي لكل النواحي بدءا من المساهمة في تصميم العمارة ... إلى تصميم وتنفيذ الديكور وما يتعلق به في عرض معين." كما يتعرض المعجم إلى كثير من التفاصيل حول هذا المصطلح، وأهم الميادين والكيفيات التي يتدخل فيها صياغة وتخطيطا أوتحويرا. إضافة إلى لمحة تاريخية موجزة حول فن السينوغرافيا.

والملاحظ على هذا التعريف، أنه حاول ما استطاع، الإفادة من الدراسات المسرحية الحديثة، خاصة ما تعلق منها بفن العمارة والمناهج النقدية الفنية التي اهتمت بالسينوغرافيا من نواحي شتى، كما أفاد من دراسات الفن التشكيلي، من الجوانب التصويرية وفن المنظور.

---

[*] - Yannis Kokkos من مواليد 1944 باليونان. نفي إلى فرنسا سنة 1963، أين عمل في مجال السينوغرافيا مع أشهر مخرجيها، خاصة المخرج أنطوان فيتيز. كما له عدة محاولات في الإخراج.

وإلى جانب عناصر البناية المسرحية والديكور والإنارة...، تذكر نهاد صليحة أن السينوغرافيا أصبحت تتطلع إلى دمج الصوت والحركة ضمن ميدان اشتغالها، باعتبارهما عنصرين فاعلين في تشكيل وبناء العرض المسرحي وفضائه. ولذلك كله فهي عملية مركبة ومعقدة لا تضاهيها تعقيدا إلا تلك العملية المكملة لها والمتمثلة في عملية تلقي الجمهور.

ومن هنا، لم تكن السينوغرافيا لتقف موقف المتفرج من التيارات النقدية ومناهج البحث الحداثية، التي أصبحت تدين بالولاء والطاعة إلى سلطة المتلقي، لبلوغ الكمال الدلالي في عمل إبداعي. لذلك فإن الجمهور يبقى حاضرا، تعج به القاعة حتى حينما يكون المسرح مغلقا، ويغازله المبدعون والفنانون في شتى تخصصات المسرح، بغرض إضفاء معان ودلالات يتقبلها. أضحت السينوغرافيا ملازمة للفضاء، أي فضاء تدخل عليه بغرض هيكلته، وإعطائه توجها دلاليا يخدم أفكارا ما، لا تكون بالضرورة أفكار مسرحية بعينها، بل قد تكون أفكارا متعلقة بفضاء معرض للصناعات التقليدية مثلا، أو بفضاء ملعب لكرة القدم يراد تكييفه لإقامة احتفال بعيد وطني أو غير ذلك.

لكن – وإلى غاية مطلع القرن العشرين- كان مصطلح السينوغرافيا ما يزال متعلقا بالتصوير والإيهام ذي البعدين. ففي سنة 1973 أصدر موريدزيو فاجيولو كتابه الشهير السينوغرافيا - من العروض المقدسة إلى المستقبلية، عرّف فيه السينوغرافيا كما يلي: "يعني مصطلح السينوغرافيا تزيين الخشبة...بمجموع المبادئ والمواد التي تسمح بتجسيد البعد الثالث في المسطح"، وليست هذه المبادئ التي تجسد البعد الثالث سوى تقنية **المنظور**(*) التي كانت - بقدرتها على الإيهام بالمكان الذي تدور فيه الأحداث- تضاهي الديكورات المبنية والمجسدة.

وطيلة ثلاثة قرون من الزمن (من ق 17 إلى ق 19) شهدت مسارح أوربا قاطبة هذه التقنية، بل كانت هي التقنية السينوغرافية المهيمنة على كل النتاج المسرحي، فأنتجت ما يمكن أن نسميه نظاما دلاليا يسهل قراءة العروض فضائيا.

غير أن هذا النظام أصبح – مع ظهور الإنارة بالكهرباء- يجد صعوبة في أداء وظيفته الإيهامية تلك، كون المصابيح الكاشفة أصبحت تكشف عيوبه وتعري الوهم الذي كان يعيشه الجمهور في تلك الفترة، نظرا لقلة الضوء الذي كان يعتمد الشموع أو مصابيح الغاز. ولقد أثر اختراع الكهرباء تأثيرا بليغا في السينوغرافيا، بل إنه أحدث ثورة مفاهمية فيها، استوجبت إعادة النظر في وظائفها وطرق تجسيدها والمواد المعتمدة في بنائها، مما أحدث أزمة هوية لديها، كتلك الأزمة التي عرفها فن الرسم عند ظهور الصورة الفوتوغرافية.

ولم تكن أزمة الهوية هذه، التي عرفها فن السينوغرافيا، تحمل جانبا سلبيا فقط، بل إن الجانب الإيجابي ليطغى عليه من كل ناحية، فوجود الأزمة في حد ذاته، كان وازعا كافيا لإقامة بحوث مستفيضة حول هذا الفن، الذي ما فتئ يعرف انتشارا منقطع النظير، إضافة

---

*- **المنظور Perspective**: من الفعل اليوناني Perspicere وتعني أبصر من خلال. مصطلح من مصطلحات الرسم والعمارة، وهو مبدأ تصويري يتحقّق بالرسم بطريقة خداع البصر...يولِّد تأثيرا بصريا يجعل الأشكال البعيدة تبدو أصغر من الأشكال القريبة، ويعطي الإحساس بالبعد والحجم.

إلى ظهور القواميس والمعاجم المتخصصة، التي أخذت تؤسس - شيئا فشيئا - للمصطلح وتقيم له القواعد والمبادئ، فتعيده إلى أصوله تارة، وإلى وظيفته تارات أخر.

تفصيل الفضاءات

يقول بافيس إن الفضاء الدرامي هو"الفضاء الذي يتحدث عنه النص. وهو فضاء مجرد، يشيده القارئ عبر الخيال." غير أن هذا النوع من الفضاء الخيالي لا يقتصر على النص المسرحي فقط، بل يشترك فيه المسرح مع بقية فنون الأدب كالرواية والقصة والقصيدة، ويصادف أن يسمى مكانا أيضا، ذلك أن فنون الأدب تلك، لا تعزو إلى خاصية التشخيص المادي، كما هي حال المسرح.

و يقسم بافيس في "قاموس المسرح" الفضاء في الفن المسرحي (نصا وعرضا) إلى فضاءات متعددة ومتنوعة، نلخص مجملها فيما يلي:

1. **الفضاء الدرامي** (L'espace dramatique)، وهو الفضاء الذي يتحدث عنه النص. الفضاء المحسوس الذي يصنعه القارئ أو المتلقِّي عن طريق الخيال.

2. **الفضاء (الرّكحي) أو فضاء الخشبة** (L'espace scénique)**:** هو الفضاء الحقيقي للخشبة أين يجول الممثلون، سواء كان ذلك في فضاء الخشبة الحقيقي أم في وسط الجمهور.
3. **الفضاء السينوغرافي (أوالفضاء المسرحي** (ou espace théâtral) L'espace scénographique)**:** هو فضاء المسرح، وبصفة أدق هو الفضاء الذي يتواجد فيه الممثلون والجمهور خلال العرض...وهو باختصار محصّلة الأنواع الخمسة الأخرى المذكورة. وتشير آن أوبرسفيلد إلى أنه ينبني من خلال معمارٍ أو منظر فوتوغرافي أو من خلال فضاء متكون أساسا من أجساد الممثلين.
4. **الفضاء المتعلق باللعب (أو الفضاء الإيمائي)** (L'espace ludique **ou** gestuel)**:**
هو الفضاء الذي يبدعه الممثل عن طريق حضوره تنقلاته، وكذا علاقته بالمجموعة وتموضعها فوق الخشبة.
5. **الفضاء النصي** L'espace textuel**:** هو الفضاء الموجود في المادة النصية والصوتية والبلاغية؛ الفضاء الذي يجمع بين الحواري والإرشادات التوجيهية للمؤلف (...)
6. **الفضاء الداخلي** L'espace intérieur**:** هو فضاء الخشبة بوصفه محاولة لتمثيل رغبة ما أو حلم أو وجهة نظر كاتب مسرحي أو شخصية ما (...)

وعلى الرغم من الدقة والموضوعية التي قد يتّسم بها هذا التقسيم، وعلى الرغم من أنّ العامل بالحقل السينوغرافي ليفيدن منه إفادة مثمرة، إذا ما اطّلع عليه وفهمه الفهم الذي يليق به، وليُظهرنّ له دقائق العمل على وضع مخططات سينوغرافية، تتماشى والفهم الحقيقي للعمل، إلاّ أنه من الناحية التطبيقية أو العملية، قد يُدخلنا متاهات تقنية لا قِبل لهذا البحث بها. لذلك سنعرض لفضاءات الأحداث وأمكنتها، باستعمال المصطلحين: فضاء ومكان معا غير مجردين من زمنيتهما، للحدي عنهما موظفين في النص.